ISSN: 2957 - 8108

مجلة بحوث
جامعة حلب في المناطق المحررة

المجلد الرابع ـ العدد الثاني

الجزء الثاني

07 / 01 / 1447 هـ - 02 / 07 / 2025 م

علميّة - ربعيّة - محكّمة

تصدر عن

جامعة حلب في المناطق المحرّرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الهيئة الاستشارية لمجلة جامعة حلب في المناطق المحررة

د. جلال الدين خانجي　　أ.د زكريا ظلام　　أ.د عبد الكريم بكار

أ. د إبراهيم أحمد الديبو　　أ.د. أسامة اختيار　　د. أسامة القاضي

د. يحيى عبد الرحيم

هيئة تحرير مجلة جامعة حلب في المناطق المحررة

رئيس هيئة التحرير: أ.د أحمد بكار

نائب رئيس هيئة التحرير: أ.د. عماد برق

أعضاء هيئة تحرير البحوث التطبيقية	أعضاء هيئة تحرير البحوث الإنسانية والاجتماعية
أ.د. عبد العزيز الدغيم	أ.د عبد القادر الشيخ
أ.د ياسين خليفة	د. جهاد حجازي
أ.د. جواد أبو حطب	د. ضياء الدين القالش
أ.د. عبد الله حمادة	د. سهام عبد العزيز
أ.د. محمد نهاد كردية	د. ماجد عليوي
د. ياسر اليوسف	د. أحمد العمر
د. كمال بكور	د. محمد الحمادي
د. مازن السعود	د. عدنان مامو
د. عمر طوقاج	د. عامر المصطفى
د. محمد المجبل	د. أحمد أسامة نجار
د. مالك السليمان	
د. عبد القادر غزال	
د. مرهف العبد الله	

أمين المجلة: هاني الحافظ

مجلة جامعة حلب في المناطق المحررة

مجلّة علميّة محكّمة فصليّة، تصدر باللغة العربية، تختص بنشر البحوث العلمية والدراسات الأكاديمية في مختلف التخصصات، تتوفر فيها شروط البحث العلمي في الإحاطة والاستقصاء ومنهج البحث العلمي وخطواته، وذلك على صعيدي العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الأساسية والتطبيقية.

رؤية المجلة:

تتطلع المجلة إلى الريادة والتميز في نشر الأبحاث العلميّة.

رسالة المجلة:

الإسهام الفعّال في خدمة المجتمع من خلال نشر البحوث العلميّة المحكّمة وفق المعايير العلمية العالمية.

أهداف المجلة:

- نشر العلم والمعرفة في مختلف التخصصات العلميّة.
- توطيد الشراكات العلمية والفكرية بين جامعة حلب في المناطق المحررة ومؤسسات المجتمع المحلي والدولي.
- أن تكون المجلة مرجعاً علمياً للباحثين في مختلف العلوم.

الرقم المعياري الدولي للمجلة ISSN: 2957-8108

الموقع الإلكتروني للمجلة: www.journal.uoaleppo.net **البريد الإلكتروني:** journal@uoaleppo.net

معايير النشر في المجلة:

١- تنشر المجلة الأبحاث والدراسات الأكاديمية في مختلف التخصصات العلميّة باللغة العربية.

٢- تنشر المجلة البحوث التي تتوفر فيها الأصالة والابتكار، واتباع المنهجية السليمة، والتوثيق العلمي مع سلامة الفكر واللغة والأسلوب.

٣- تشترط المجلة أن يكون البحث أصيلاً وغير منشور أو مقدم لأي مجلة أخرى أو موقع آخر.

٤- يترجم عنوان البحث واسم الباحث (والمشاركين أو المشرفين إن وجدوا) إلى اللغة الإنكليزية.

٥- يرفق بالبحث ملخص عنه باللغتين العربية والإنكليزية على ألا يتجاوز ٢٠٠-٢٥٠ كلمة، وبخمس كلمات مفتاحية مترجمة.

٦- يلتزم الباحث بتوثيق المراجع والمصادر وفقاً لنظام جمعية علم النفس الأمريكية (**APA7**).

٧- يلتزم الباحث بألّا يزيد البحث على ٢٠ صفحة.

٨-ترسل البحوث المقدمة لمحكمين متخصصين، ممن يشهد لهم بالنزاهة والكفاءة العلمية في تقييم الأبحاث، ويتم هذا بطريقة سرية، ويعرض البحث على محكّم ثالث في حال رفضه أحد المحكّمين.

٩- يلتزم الباحث بإجراء التعديلات المطلوبة خلال ١٥ يوماً.

١٠- يبلغ الباحث بقبول النشر أو الاعتذار عنه، ولا يعاد البحث إلى صاحبه إذا لم يقبل، ولا تقدم أسباب رفضه إلى الباحث.

١١- يحصل الباحث على وثيقة نشر تؤكد قبول بحثه للنشر بعد موافقة المحكمين عليه.

١٢-تعبّر الأبحاث المنشورة في المجلة عن آراء أصحابها، لا عن رأي المجلة، ولا تكون هيئة تحرير المجلة مسؤولة عنها.

جدول المحتوى

التحقق من صحة بيانات الأنظمة غير المحددة باستخدام التحليل المجالي..... ٧

د. مصطفى الحاج ديبو

تصميم نظام إجابات على أسئلة من القرآن الكريم في اللغة العربية باستخدام المحولات العميقة..... ٢٣

أ. فاطمة الزهراء صطوف د. محمود موسى

أثر القيادة الأخلاقية في الالتزام التنظيمي..... ٤٧

أ. محمد مرعي أ. د. عبد الله حمادة د. مصطفى الدرويش

دوافع العمل التطوعي لدى عينة من العاملين في منظمات المجتمع المدني في الشمال السوري المحرر..... ٧٧

أ. علاء الدين يحيى د. محمود عريض

أسباب تحوُّل الحكم الدياني إلى حكم قضائي وأثرها في اختلاف الفقهاء "دراسة فقهية تطبيقية"..... ١٠٧

د. محمد تركي كتوع

حكم الإنفاق من أموال الزكاة على المصالح العامة في الواقع السوري بعد عام ٢٠١١م..... ١٣٧

أ. حذيفة علي باشا د. أسامة الحموي

التوثيق المقيد عند الإمام الذهبي في كتابه الكاشف..... ١٥٥

أ. عبيدة بكار د. ماجد عليوي

الصراع العسكري بين الإمامة الإباضية في عُمان والدولة العباسية بين عامي (١٩٣-١٣٢ هـ / ٧٥٠ – ٨٠٩ م)..... ١٧٩

أ. عرفان علي السلامه د. جميل الحجي

دورُ التّراث الثّقافيّ المادّيّ في تماسك المجتمع السّوريّ..... ١٩٥

د. محمود الأش

استجابة الحزن لدى عينة من طلاب الصف التاسع الأساسي فاقدي الوالدين وعلاقته ببعض المتغيرات..... ٢١٩

أ. ابتسام كوربلال د. فواز العواد

الجميل والقبيح في رواية (جومبي) لأديب نحوي..... ٢٤٩

أ. مصطفى العبدو د. محمود مصطفى

النّسق الدّينيّ في رواية "يرحلون ونبقى" للكاتبة (راما يوسُف الحاج عليّ)..... ٢٧١

أ. وائل خضير د. محمود المصطفى

أثر استعمال البطاقات في التعلم المتعمد للمفردات في طلاب اللغة الإنكليزية المستجدين في شمال غرب سورية..... ٢٩٥

أ. جمعة الأحمد د. عبد الحميد معيكل

النّسق الدّينيّ في رواية "يرحلون ونبقى" للكاتبة (راما يوسُف الحاج عليّ)

إعداد

أ. وائل خضير د. محمود المصطفى

ملخص البحث:

يتحدّث المقال عن النّسق الدّينيّ في رواية (يرحلون ونبقى) للكاتبة (راما يوسُف الحاج عليّ) من حيث ماهيته ومواضع ظهوره في الرّواية، وما يعكسه هذا النّسق من أهمّيّة في مجال العمل الرّوائيّ على نطاق واسع من حيث المصطلح والمدلولات الثّقافيّة الظّاهرةِ منها والمضمرة، وسنحاول من خلال هذا المقال توضيح بعض النّقاط المهمّة والمتعلّقة بهذا الموضوع والمتمثّلة بما يأتي:

- مفهوم النّسق وأنواعه وأماكن تموضعه في الرّواية، وطُرق تقديمه في الرّواية.
- مفهوم النّسق المضمر وأهمّيّته في بحثنا بوصفه عنصراً أساسيّاً يُشكّل صُلب العمل الرّوائيّ في المنهج الثّقافيّ.
- مرجعيّات النّسق الثّقافيّ في النّصوص الأدبيّة والخطابات بما يتناسب مع العُرف الاجتماعيّ والثّقافيّ.
- مفهوم النّسق من قِبَل الكاتبة ومواضع ظهوره في الرّواية.

كلمات مفتاحية: النّسق – الثّقافة– الدّين

The Religious Discourse in the Novel '*They Depart and We Remain*' by Rama Yusuf Al-Haj Ali

Prepared by:
Wael Khudair Dr. Mahmoud Al-Mustafa

Abstract:

This article explores the religious discourse in the novel *They Depart and We Remain* by the author Rama Yusuf Al-Haj Ali, focusing on its nature, points of occurrence within the narrative, and the significance it reflects in the broader context of the novelistic work. The study examines the term and its cultural connotations, both explicit and implicit. Through this article, we aim to clarify several key aspects related to the topic, including:

- The concept of discourse, its types, locations within the novel, and the methods of its presentation.
- The concept of implicit discourse and its importance in our study as a fundamental element that forms the core of the novelistic work within the cultural approach.
- The cultural references of discourse in literary texts and speeches, in accordance with social and cultural norms.
- The author's conception of discourse and its manifestations throughout the novel.

Keywords: religious discourse, *They Depart and We Remain* (novel), Rama Yusuf Al-Haj Ali

المقدمة:

تشكّل الأنساق الثّقافيّة منهجاً جديداً في مسار النّقد الحديث بوصفها عنصراً فعّالاً في كشف النّصّ الأدبيّ المقروء، وما يحمله ذلك النّصّ من مادّة علميّة وصراعات ثقافيّة مفترضة أسهمت في انفتاح النّقد العربيّ واتّساع رقعته النّقديّة للكشف عن مواطن الإبداع والجماليّات التي يخفيها النّص الأدبيّ في داخل، ويأتي النّسق الدّينيّ في مقدّمة تلك الأنساق بوصفه أهمّ المرتكزات التي تدور حولها الثّوابت الفكريّة والاجتماعيّة، حيث تمثّل التّوجّهات الدّينيّة المحور الأساسيّ لأغلب سلوكيّات أفراد المجتمع، لذا نجد أنّ معظم نشاطات الأفراد تقوم على مرتكزات الدّين.

تشكّل الرّواية المرآة العاكسة لتفكير الأديب والرّوائيّ الاجتماعيّ النّابع من تأثير البيئة والمجتمع وأعرافه وتقاليده، الأمر الذي جعل الرّواية تخضع لقوانين النّقد الأدبيّ والنّقد الثّقافيّ في مسيرة البحث العلميّ لما تتضمنّه من آثارٍ نفسيّة تنعكس على الكاتب أو شخصيّاته وتفكيره النّاتج عن تأثيرات البيئة والمجتمع.

مسوّغات البحث وأهدافه:

تُعدّ الرّواية من أرقى الفنون الأدبيّة وأكثرها تركيباً وتعقيداً، والأوسع انتشاراً بين الفنون الأدبيّة الأخرى، بوصفها فنّاً أدبيّاً يستطيع الكاتب من خلاله التعبير عمّا في نفسه من عواطف وانفعالات، والكشف عن أحداث حقبةٍ زمنيّة معيّنة إذ يتّسع للأديب والقارئ من خلال الرّواية أن يكون كلّ واحد منهما محلّلاً أو طبيباً نفسانيّاً ومصلحاً اجتماعيّاً أو مؤرّخاً، ولا تكتمل الرّواية إلّا بوجود عنصر النّسق الدّينيّ الذي يضمّ جميع جوانب الرّواية بما فيها الشّخصيّات الرّوائيّة، وما تقوم به من أفعال. وتكمن أهميّة النّسق الدّينيّ في الرّواية في عدّة أسباب أهمها:

- جدّيّة النّسق الدّينيّ على السّاحة الأدبيّة النّقديّة ولاسيّما الرّواية منها.
- البحث في النّسق الدّينيّ يكشف عُمق المقاصد والمعاني التي يرمي إليها الكاتب ويُسهم وبشكل مباشر في إظهار جماليّة النّصّ الأدبيّ التي تجعله أكثر جذباً لدى المتلقّي على اختلاف أنواعه.
- البحث في النّسق الدّينيّ في رواية (يرحلون ونبقى) يشكّل رافداً جديداً – بدراسات جديدة ومتنوّعة– للدّراسات السّابقة في الرّواية العربيّة.
- الكشف عن التّطوّر الدّلاليّ لمصطلح (النّسق الدّينيّ) في الرّواية الحديثة، وفهم النّقّاد لهذا المصطلح.
- والأهم من ذلك كلّه وجود تشابه في جوانب كثيرة بين ما ترويه الكاتبة من أحداث حصلت مع أبيها الشّيخ (يوسُف الحاج عليّ) من ظلم وقهر بعد اعتقاله وتعذيبه في سجون الأسد وأقبية مخابراته، والأحداث التي حصلت مع نبيّنا (يوسُف) عليه الصّلاة والسّلام من ظلمٍ وتعذيب ورميٍ في غيابات الجبُّ على يد إخوته في محاولةٍ منهم

لإبعاده عن أبيه، الأمر الذي فتح المجال الواسع للكاتبة للاقتباس من القرآن الكريم لدرجة أنّ النّسق الدّينيّ يكاد يسيطر على جوانب الرّواية بأكملها.

إشكاليّة البحث:

إنّ الوقوف على أهمّيّة (النّسق الدّينيّ) في الرّواية العربيّة أمرٌ لابدَّ منه، لاسيّما وأنّ الرّواية أخذت تتطوّر بعد انتقالها من الغرب إلينا، فكان التّعرّف على آراء النّقّاد الغربيين والعرب حول هذا المصطلح واجب علينا، وما مدى فهمنا لتفصيلاته؟ وما العوامل والظّروف التي أسهمت في تطوّره، وكيفيّة تقديمه من قِبَل الكاتب، وما مدى تأثيره فيها؟

المنهج العلميّ للبحث:

يقوم هذا البحث على المنهج الوصفيّ التّحليليّ بوصفه رافداً لمنهج النّقد الثّقافيّ، لأنّه الأقدر بين المناهج على تحليل الظّاهرة الأدبيّة، ووصفها، ويسمح للباحث أن يغوص في أعماق الكتابات من الجمال والفنّ والإبداع في الرّوايات الأدبيّة، والكشف عن مواضع النّسق الدّينيّ الكامن فيها الظّاهر منها والمضمر وتحليله وتفسيره بما يخدم البحث العلميّ.

١- مفهوم النّسق:

١- **النّسق لغة:** يعدُّ مصطلح النّسق من بين أهمّ المصطلحات الرّائجة في حقل الدّراسات الأدبيّة والنّقدية وخاصّةً الثّقافيّة منها، جاء تعريف مصطلح نسق في معجم /لسان العرب/ كما يأتي: "النّسق من كل شيء ما كان على طريقة نظامٍ واحدٍ عامّ في الأشياء، وقد نسّقه تنسيقاً، ويخفّف ابن سيده فيقول: نَسقُ الشّيء ينْسقُه نسقاً ونسّقه نظّمه على السّواء، وانتسقَ تناسق والاسم النّسق، وقد انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي تنسّقت، والنّحويّون يسمّون حروف العطف حروف النّسق لأن الشّيء إذا عُطِف عليه شيءٌ بعده جرى مجرًى واحداً، وروي عن عمر رضي الله عنه أنّه قال: "ناسِقُوا بين الحجّ والعمرة"، قال سمر:(ناسِقُوا تابعوا وواتروا)، ويقال: (ناسق بين الأمرَيْن) أي تابع بينهما". (ابن منظور، لسان العرب، ص: ٣٥٢) وفي هذا دلالة على الحركة والفعل.

وورد في المعجم الوسيط: "أنسَقَ فلانٌ أي تكلّم سجعاً"، (ناسق) تابع بينهما ولاءم، ونسّقه نظمّه، وانتسقَتِ الأشياء انتظم بعضها إلى بعضٍ، ويقال: نسقها فانتسقت". (مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ص: ٩١٨) وبذلك نلحظ الدلالة الكلاميّة.

وجاء في معجم مقياس اللغة أنّ "نسق /النّون والسّين والقاف/ أصل صحيحٌ يدلّ على تتبّعٍ في شيء". (ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص: ٤) وفي هذا دلالة على المعنى اللغوي الناتج عن تجاور الحروف.

ومن خلال التّدقيق في التّعريفات السّابقة للنّسق لغةً نجد أنّها تتشابه وتتّفق في وصف النّسق وتعريفه بأنّه ما كان على نظامٍ واحدٍ، وما كان في الكلام على نسقٍ واحدٍ.

والنّسق في العلوم الفلسفيّة والتّنظيريّة هو مجموعة من الأفكار العلميّة أو الفلسفيّة المتآزرة والمترابطة يدعم بعضها بعضاً ومؤلّفة لنظام عضويّ متين مثل قولنا: "نسق أرسطو، ونسق نيوتن ونسق هيجل وما إلى ذلك". (جلال الدّين، معجم المصطلحات والشّواهد الفلسفيّة، ص: ٤٦٧).

٢- النّسق اصطلاحاً: هو النّظام التّقنيّ الذي يميّز البنيات المتشابكة في النّص، وهو متعدّدٌ ومتنوّع وقد يتكرّر، وهو عالميّ ودالٌّ على مستويات البنية، وهو تقليديّ ونمطيّ وشكليّ ومبتكر في الوقت نفسه، بينما ترتكز على الدّلالة رغم تقنيّتها الشّكليّة وهناك بين النّسق والبنية علاقة جدليّة لا فكاك منها: فالبنية هي التي تكشف النّسق كما أنّ النّسق هو الذي يُكوّن البنية. (مناصرة، علم التّناص والتّلاصّ، ص: ٣).

حسب هذا التّعريف يُعدّ النّسق نمطيّاً شكليّاً متكرّراً متعدّداً تقليديّاً في نفس الوقت، وهو نظام تقنيّ وفي علاقة جدليّة مع البنية، أمّا يُمنى العيد فتقول: "يتحدّد هذا المفهوم في نظرتنا إلى البنية ككلّ، وليس نظرتنا إلى العناصر التي تتكوّن منها وبها البنية، حيث إنّ البنية ليست مجموع هذه العناصر، بل هي هذه العناصر بما ينهض بينها من علاقات تنتظم في حركة العنصر خارج البنية غير داخلها، وهو يكتسب قيمته داخل البنية وفي علاقته ببقيّة العناصر أو بموقعه في شبكة العلاقات التي تنظّم العناصر التي بها تنهض البنية فتنتج نسقاً، (العيد، في معرفة النّصّ، ص:٣٢) فالنّسق على العموم انتظام بنيويّ ينسجم ويتناغم فيما بينه ليشكّل نسقاً أشمل وأعمّ.

"والأنساق الثّقافيّة هذه أنساقٌ تاريخيّة أزليّة وراسخة ولها الغلبة دائماً وعلامتها، هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج الثّقافيّ المنطوي على هذا النّوع من الأنساق، وكلّما رأينا منتوجاً ثقافيّاً أو نصّاً يحظى بقبولٍ جماهيريّ عريض وسريع، فنحن في لحظة الفعل النّسقيّ المضمر الذي لابدّ من الكشف عنه". (الغذاميّ، النّقد الثّقافيّ، ص: ٧٦- ٨٥).

ويحدّد /تالكوت بارسونز/ ثلاثة أبعادٍ للنّسق الثّقافيّ تتمثّل في:

١- **أنساق الأفكار والمعتقدات:** وهي التي تعبّر عن الأداء والتّصوّرات العقليّة والعقائديّة حول شؤون الكون والحياة الاجتماعيّة وكيفيّة استجابة الإنسان للمشاكل التي يتعرّض لها، وهي قسمان:

أ- المعتقدات المعرفيّة المتمثّلة في النّظريات العمليّة والآراء السّياسيّة والاجتماعيّة.

ب- (قضيّة الوجود) التي تتشكّل من أفكار وعقائد فلسفيّة تتّصل بالمثل التي تُكسب العصر طابعه الثّقافيّ المميّز.

٢- **أنساق الرّموز التّعبيريّة:** تشتمل على اللغة وتفاصيلها وأنواع الفنّ ونماذجه /التّعلم والاكتساب/.

٣- **أنساق التّوجّه القوميّ:** وهي التي ترتبط بالتّراث الجمعيّ وتشمل على الأحكام العامّة التي تتبنّاها الأفراد والجماعات. (مرسي، علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز، ص: ٩٢).

مّما سبق نستنتج أنّ النّسق الثّقافيّ هو ممارسة جماعيّة يحافظ به الإنسان على شخصيّته الثّقافيّة، ويظهر هذا النّسق في صوره جملة من السّلوكيّات الجماعيّة والثّقافيّة والشّفاهيّة، وهذا النّسق /بحسب ميشيل فوكو/ هو علاقات تستمرّ وتتحوّل بمعزلٍ عن الأشياء التي تربط بينها، ويعمل النّسق على بلورة منطق التّفكير الأدبيّ في النّص كما يحدّد الأبعاد والخلفيّات التي تعتمدها الرؤية. (علوش، معجم المصطلحات الأدبيّة، ص: ٢١١).

النّسق المضمر: /المضمرة/ في اللسان العربيّ مؤنّث /مضمر/ وهما من الجذر اللغويّ /ضمر/.

جاء في معجم مقياس اللغة بأنّ للجذر /ضمر/ أصلين صحيحين: أحدهما يدلّ على دقّةٍ في الشّيء، والآخر يدلّ على غيبية وتستّر. (ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص: ٣٧١).

كما جاء في معجم لسان العرب فيما يخصّ هذا الجذر اللغويّ وما تعلّق به "تضمّر وجهه: انضمّت جلدته من الهُزال، والضّمير: السّرُّ داخل الخاطر، والجمع الضّمائر (...) الضّمير الشّيء: الذي تُضمره في قلبك، تقول: أضمرتُ صرف الحرف إذا كان متحرّكاً فأسكنتُه، وأضمرت في نفسي شيئاً، والاسم الضّمير والجمع الضّمائر، والمضمر الموضِعُ والمفعول (...).

قال الأعشى: "أرانا إذا أضمرتْك البلاد نجفي وتُقطَعُ منّا الرّحمُ" (ابن منظور، لسان العرب، ص: ٢٦٠٦- ٢٦٠٧).

من خلال هذه التّعريفات اللغويّة السّابقة لمصطلح /مضمر/ يمكننا تحديد ما ينطوي عليه من معانٍ وفق الآتي:

الدّقّة- السّرّ والخفاء- الغياب بالموت أو السّفر، فيكون معنى المضمر في اللغة موضع الدّقّة أو موضع الخفاء والسّرّ أو موضع، الغياب فالمضمرة وفق هذا الأساس تُعرف بمكان الخفاء والسّرّ وكان الغياب، بالجمع بين المصطلحين /النّسق/ و/المضمرة/ يمكن تحديد مفهوم /النّسق المضمر/، وفي هذا السّياق يتّضح أنّ "كلّ دلالة نسقيّة مختبئة تحت غطاء الجماليّ ومتوسّلة بهذا الغطاء لتغرس ما هو غير جماليّ في الثّقافة. (الغذاميّ، اصطيف، نقد ثقافيّ أم نقد أدبيّ، ص: ٣٣).

كما يعرّفه عبد الله الغذاميّ بقوله: "ذو طبيعة سرديّة يتحرّك في حبكة متقنة، لذلك فهو خفيّ ومضمر وقادرٌ على الاختفاء دائماً، ويستخدم أقنعة كثيرة أهمّها قناع الجماليّة اللغويّة، وعبر البلاغة وجماليّاتها تمرّ الأنساق آمنةً مطمئنّةً من تحت المظلّة الوارفة. (الغذاميّ، النّقد الثّقافيّ، ص: ٧٦- ٨٥).

فالنّسق المضمر إذاً سرديٌّ ويتحرّك بحبكة متقنة ويتخفّر آمناً تحت أقنعة جماليّة لغويّة كانت أم بلاغيّة، إضافةً إلى خاصّيّة التّخفّي تحت القناع والغطاء يضيف المفهوم الآتي الاختفاء تحت التّرسّبات فهو إذاً: "مجموعة من التّرسّبات تتكوّن عبر البيئة الثّقافيّة والحضاريّة وتتقن الاختفاء تحت عباءة النّصوص المختلفة وتمارس على الأفراد سلطة من نوع خاص وهي حاضرةٌ في فلتات الألسن والأقلام بصورة آليّة، وينجذب نحوها المتلقّون دونما شعورٍ منهم، لأنها أصبحت تشكّل جزءاً مهمّاً من بنيتهم الذّهنيّة والثّقافيّة. (حمّادي، ناصر، النّقد الثّقافيّ، ص: ١٧)

على الرغم من الاختلاف الذي نلاحظه في بعض ألفاظ هذه المفاهيم المذكورة سابقاً فإنّها تتّفق كلّها حول مفهوم النّسق ومميّزاته، فهناك من يطلق أحياناً تسمية أقنعة والآخر أغطية وترسّبات، حيث تبدو هذه التّرسّبات في دلالتها أكثر سمكاً من الأغطية والأقنعة والعباءات، وهذا ما يجعل مهمّة الكشف عمّا تخبّئه من أنساقٍ تستلزم التّنقيب والحفر وهي مهمّة أصعب من كشف ونزع الغطاء أو القناع، وتطلق عليها كذلك تسمية "الأنساق الثّقافيّة" تاريخيّة أزليّة وراسخة ولها الغلبة دائماً، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاكِ المنتوج الثّقافيّ المنطوي على هذا النّوع من الأنساق، وكلّما رأينا منتوجاً ثقافيّاً أو نصّاً يخطف بقبولٍ جماهيريّ عريض وسريع فنحن في لحظةٍ من لحظات الفعل النّسقيّ المضمر. (الغذاميّ، النّقد الثّقافيّ، ص: ٧٩- ٨٠).

مرجعيّات الأنساق الثّقافيّة:

للأنساق الثّقافيّة عرفٌ اجتماعيٌّ يتموضع في النّصوص الأدبيّة والخطابات، فعلى المؤلّف والجمهور أن يقبله، كما أنّ العُرف يشكّل في حدّ ذاته نظاماً، وهذا ما ذهب إليه عبد الفتّاح كليطو/ في قوله: "مواضعة/ اجتماعيّة، دينيّة- أخلاقيّة.../ تفرضها وفي لحظة معيّنة من تطوّرها الوضعيّة الاجتماعيّة التي يقبلها ضمنيّاً المؤلّف وجمهوره. (كليطو، المقامات، السّرد والأنساق الثّقافيّة، ص:٨).

فمرجعيّات الأنساق متعدّدة ومتغيّرة من مجتمع لآخر تنبثق من المواضعة الاجتماعيّة والدّينيّة والأخلاقيّة.

يرى /ضياء الكعبيّ/ أنّ مرجعيّات الأنساق ترجع إلى كونها عبارة عن /نُظُم/ بعضها كامن في النّص وبعضها الآخر ظاهر في أيّة ثقافةٍ من الثّقافات، وتتفاعل في هذه النُّظُم العلاقات المجازيّة عن التّذكير والتأنيث الثّقافيّتين، والعرق والدّين والأعراف الاجتماعيّة والقيود السّياسيّة والتّقاليد الأدبيّة والطّبقة وعلاقات السّلطة التي تحدّد الواقع الفاعلة للذّوات، وهذه ذات صلة وثيقة بإنتاج الخطاب الإبداعيّ والفكريّ وطرائق تلقّيه، والأنساق لا تقتصر على الأدب الرّسميّ أو المعتمد في ثقافة ما إنّما يتجاوز ذلك الأدب، (كعبيّ، السّرد العربيّ القديم للأنساق، ص: ٢٢). وبالتّالي فإنّ مرجعيّات الأنساق الثّقافيّة الظّاهرة منها والمضمرة هي أنظمةٌ تواضعت عليها جماعة

ما من مجتمع ما من أعراف ودين وعادات وتقاليد وممارسات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة، سواءٌ كانت هذه الممارسات مقبولةً أو تُخفي تحتها أساليب السّيطرة والهيمنة والتّهميش بكلّ أنواعه.

أ- العُرف: هو عبارة عن قواعد ومفاهيم ومعايير ومقاييس اجتماعيّة متّفق عليها ومقبولةٌ لدى العامّة، حيث يشترك فيه جميع النّاس على اختلاف أزماتهم وبيئاتهم وثقافاتهم ومستوياتهم وغالباً ما يكون على هيئة عادة غير مكتوبة اعتاد عليها النّاس، فهو إذاً مفهومٌ اجتماعيّ يتقيّد به أفراد مجتمع ما، وهو قديم ثابتٌ ومكرّسٌ وخاصٌّ بمنطقة من دون غيرها.

وقد تشترك بعض المناطق والمجتمعات بمجموعة من الأعراف كعرف الهيمنة الذّكوريّة الأبويّة المكرّس عبر الشّارع لفرض النّظام الأبويّ للقمع والسّلطة على المرأة.

ب- الدّين: وهو عبارة عن مجموعة من المعتقدات تكوّن نظاماً متّصلاً وتتعلّق بعالم ما بعد الطّبيعة في غالب الأحيان، وتؤمن بهذه المعتقدات جماعة ما، فتمارس شعائر وطقوساً مقدّسة، أو تعتقد وتؤمن بوجود قوّة روحيّة عليا أحاديّة أو متعدّدة ويقال: "دين طبيعيّ (...) ويُقصد به وجود الله وخلود الرّوح، ودين وضعيّ يقوم على وحي الضّمير والعقل. (بدويّ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعيّة، ص: ٣٥٣) وقد تعدّدت الأديان حسب المعتقدات فمنها ما هو طبيعيّ من وحي الله تعالى، ومنها ما هو وضعيّ أي تعرّض للتّحريف، يقول "دركايم": "إنّ الدّين مؤسّسة اجتماعيّة قوامها التّفريق بين المقدّس والدّنيويّ، لها جانبان: أحدهما روحيّ مؤلّف من العقائد والمشاعر الوجدانيّة، والآخر مؤلّف من الطّقوس والمعتقدات"، (جلال الدّين، معجم المصطلحات والشّواهد الفلسفيّة، ص: ٤٦٧) جاءت الأديان السّماويّة - مهما كان المرسلون بها من عند الله سبحانه وتعالى- لتُخرج النّاس من الظّلمات إلى النّور في شؤون حياتهم (...) ولم يكن في الأديان السّماويّة عموماً أيّةُ صياغات تجسّد دونيّة المرأة... ولكنّ أدبيّات الأديان وتفسيراتها، وتحريفاتها التي عمّت فيما بعد، هي التي أعادت إلى الحياة الاجتماعيّة الدّينيّة استلاب المرأة حقوقها كما كان حالها في الأساطير والخرافات، بل إلى الأسوأ أحياناً من السّياق الذي كرّسته مجتمعات الظّلم والجاهليّة. (مناصرة، النّسويّة في الثّقافة والإبداع، ص: ٢٧).

إنّ الله سبحانه وتعالى كرّم المرأة ومنحها مكانة راقية في المجتمع، ولم يفرّق بينها وبين الرّجل، بل خلقهما من نفسٍ واحدةٍ حيث قال عزَّ من قائل: **{هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفس وَاحِدَة وَجَعَلَ مِنهَا زَوجَهَا لِيَسكُنَ إِلَيهَا.}** (سورة الأعراف، آية: ١٨٩).

وقال في سورة النساء **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفس واحِدَة وَخَلَقَ مِنهَا زَوجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالا كَثِيرا وَنِسَآء.}** (سورة النّساء، آية: ١).

ج- وسائل الإعلام: تُعدّ وسائل الإعلام من أكثر المؤسّسات الخطابيّة الطّاغية على المجتمعات، وهي الكيان الأقوى على وجه الأرض، كما أنّها تمثّل سلطة تتحكّم في عقول الجماهير، فقد عدّ /بوردليار/ ثقافة الميديا جريمة تدفع الجماهير إلى التّجنيس والتّهميش، وخاصة

ثقافة الصّورة التي هي جزء منها فيقول: "إنَّ الصّورة أصبحت المهيمن الأكبر على بقيّة وسائل الإعلام وهي الثّقافة المحبّبة عند الجمهور". (خليل، النّقد الثّقافيّ من النّصّ الأدبيّ، ص: ١١٩-١٢٢).

فبعد أن كان النّص وحده المسيطر والمهيمن دخلت الصّورة لتجعل من المتلقّي مشاهداً، كذلك ليعيش نوعاً من الذّهول، فيتحوّل إلى أسير من شكل جديد أسير الهيمنة الفكريّة بكل أنواعها وذلك عن طريق ظهور الفضائيّات بكلّ توجّهاتها ومجالاتها حتّى لا تكاد تكون هناك رغبة في نفس امرئٍ لا يجدها في التّلفزيون، قد خدم كلّ ذلك سلطة الصّورة وعزّز وجودها، وينضمّ إليه الإنترنت والجوّال، وهي الجنود المجنّدة لثقافة الصّورة. (خليل، النّقد الثّقافيّ من النّصّ الأدبيّ، ص: ١١٩-١٢٠).

وخلاصة القول: إنّ النّقد الثّقافيّ يتعامل مع كلّ أنواع الخطابات الثّقافيّة لتعرية الأنساق المضمر فيها.

مفهوم النّسق الدّينيّ:

يمثل النّسق الدّينيّ أهم المرتكزات التي تدور حولها الثّوابت الفكريّة والاجتماعيّة حيث تمثّل التوجهات الدّينيّة المحور الأساسيّ لأغلب سلوكيّات أفراد المجتمع، لذا نجد أنّ معظم نشاطات الأفراد تقوم على مرتكزات الدّين، وأنّ المجتمعات الإنسانيّة تمر بمراحل تاريخيّة يكون فيها الدّين والأيديولوجيّة شيئاً واحداً فيتوحد النّسق الدّينيّ والإيديولوجيّ ويكون الفكر الموّجه للفعل والسّلوك ذا طابع دينيّ فلا نكاد نفصل بين ما هو من صميم المعتقد الدّينيّ وبين الأفكار والمعتقدات والمبادئ الأيديولوجيّة في مجتمع معيّن.

وقد ظل الدّين بكلّ جوانبه مبحثاً يثير انشغالات الباحثين والمفكّرين منذ القدم، حيث عكفوا على محاولة تفسيره وفهم عناصره وكشف بداياته ونشأته. ورصد أبعاده وحدوده. وبالرغم من أنّ المجتمعات الحديثة قد وقفت من الدّين مواقف شتّى، فإنّه ظلّ يمتلك بقاءه ودوامه على هرم القضايا العامّة والمسائل البارزة المطروحة في كلّ المجالات السّياسيّة منها والعلميّة والاقتصاديّة... وغيرها. وقد كان الدّين في السّابق المصدر الأساس للقانون، والذي هو وسيلة ضبط مهمة للمجتمع. فالقانون المصري وكذلك البابليّ والهنديّ واليونانيّ كان ينظر إليها على أنّها من صنع الآلهة، وكان وما زال يستشار رجل الدّين في أمور المجتمع السّياسيّة والاجتماعيّة. (محفوظ، مجلة أبحاث ميسان، العدد ٣٥).

فيختلف مفهوم الدّين من أمّة إلى أخرى باختلاف ثقافتها ومرجعيّاتها المعرفيّة حول الدّين "فهو ظاهرة بشريّة هي الأعمق في حياة الإنسان، والأشدّ غموضاً، في الوقت الذي تبدو فيه الأشدّ وضوحاً، ولولا غموضها لما لبثت منذ فجر التّاريخ حتّى اليوم لا تكفّ عن الحضور في المجالات والنّقاشات والكتابات والنّزاعات والسّرعات والحروب". (محفوظ، مجلة أبحاث ميسان، العدد ٣٥).

وهنا إشارة واضحة من محفوظ لنسق الثّبات في الدّين بوصفه المصدر الأساسيّ الذي تصدر عنه القوانين والضّوابط التي يرتكز عليها المجتمع في تشريع الأحكام الشّرعيّة،إذ يؤكّد محفوظ أنّ الدّين ثابت لا يتغيّر مهما تغيّرت وجهات نظر رجال الدّين ومعتقداتهم على اختلاف انتماءاتهم وثقافاتهم ومرجعيّاتهم المعرفيّة حوله.

أمّا "ربيع جابر" فقد ذهب إلى أبعد من ذلك فحاول أن يرسم صورة للتّعايش وذلك من خلال توظيفه لقضيّة الحوار التي أصبحت تشكّل في عالم اليوم ضرورة من ضروريّات العصر، غايتها التّغلّب على العديد من المشكلات الحياتيّة، فقد أصبح الحوار أحد السّمات المميّزة للعصر الحالي، وأهمّ مجال وميدان للحوار هو الميدان الدّينيّ لما للدّين من أثر لا يمكن تجاهله في حياة الأفراد والمجتمعات.

يقول أحد اللاهوتيين في ألمانيا، من دعاة حوار الأديان: "إنّه لن يكون هناك سلامٌ بين الأمم، ما لم يكن هناك سلام بين الأديان، ولن يكون هناك سلام بين الأديان ما لم يكن هناك حوار بينها".

فالحوار هو السّبيل السّليم للوصول بالبشريّة إلى برّ الأمان، وذلك من خلال التّخفيف من حدّة الصّراعات الدّينيّة والطّائفيّة والسّياسيّة بين الدول، وقد لمسنا دعوة ضمنيّة من ربيع جابر" لحوار الأديان، وذلك وفق صور سرديّةٍ رسمها في "دروز بلغراد" بين المسيحيّين والمسلمين، في قالب حواريّ مكثّف بين حنّا المسيحيّ وقاسم الدّرزيّ المسلم.

وقياساً على ذلك، نقول: "إن الشعوب عامّة والعربيّة خاصّة في أمسّ الحاجة للحوار وذلك للتّقليل من الصّراعات الحاصلة بين الشّعوب بسبب التّعصّب للدّين وللتّوجّه، فالأديان من سماحة القرآن ومحبّة الإنجيل تدعو لصداقة الآخر، والتّأقلم معه وهذا ما ختم به "ربيع جابر" روايته في شكل صورة رائعة لتقبّل الآخر، والتّأقلم معه، فصلّى حنّا يعقوب المسيحيّ صلاة المسلمين بصورة لا إراديّة وارتاح في قافلتهم المتّجهة إلى بيت الله.

فعرف سماحة الإسلام ومعنى التّعايش مع الغير، فحنّا نُفي درزيّاً وتعذّب مسيحيّاً واستراح مسلماً.

وما يمكن استنتاجه من خلال قراءة للنّسق الدّينيّ في دروز بلغراد حكاية حنّا يعقوب، أنّ الطّائفيّة وتدمير الذّات والمجتمع لا يسلمان من قدريّة تراجيديّة تلقي بكاهلها على الواقعين السّياسيّ والاجتماعيّ، ولقد كان المتخيل الروائي صدًى لهذا القدر التّراجيديّ، وفي الآن نفسه كان وسيلة لرفضه ومواجهته عبر ترسيخ قيم إنسانيّة عامّة، عن طريق تحقيق جمال فنّيّ بارع يميّز النّصّ الرّوائيّ، وبذلك يصدق قول هنري جيمس عن فنّ الرّواية على دروز بلغراد:

"ذلك أنّ الالتزام الذي يجب أن ترتبط به الرّواية سلفاً دون أن تجلب لنفسها تهم التّعسّف، هو أن تكون ممتعة، وهذه هي المسؤوليّة التي تقع على عاتقها".

ولقد كان "ربيع جابر" وفياً لهذه القاعدة الفنّيّة، فحقّق لروايته، دروز بلغراد حكاية حنّا يعقوب، شرط المتعة عبر توظيف صيغ فنّيّة سرديّة متنوّعة ومتعدّدة، واستطاع أن يتفنّن في توظيف الجانب

الدّينيّ في قالب أدبيّ إبداعيّ يرسل من خلاله رسائل توعويّة باسم المحبّة إلى قارئ فطن إن استطاع أن يلمس هذه الانساق الدّينيّة المخبّأة.

في الرّواية، التي وقفنا عند بعضها في هذه القراءة، ولمّحنا إلى بعضها الآخر، وهو ما يمكن للقارئ أن يقف عنده بنفسه، نشير إلى أنّ روايتنا هذه ليست مجرّد حكاية تاريخيّة تتشابك مع أحداث العصر الحاليّ، إنّما تطرح مواضيع اجتماعيّةً وسياسيّة وفكريّة في رؤية كونيّة وفلسفة عالميّة نادرة، في مفارقة الواقع، عبر التّاريخ، في رواية زمنيّة متنوّعة في فصولها العجيبة التي نسجت بمهارة راوٍ متمرّسٍ متخفٍّ يمتلك براعة الوجود. (أمينة حماني، مجلة الخطاب، المجلد١٩، العدد١).

ومن الملاحظ أنّ ربيع جابر يسعى لتطبيق نسق الحوار الدّينيّ الذي يعتقد أنّه سمة من السّمات المميّزة للعصر الحاليّ، وصورة من صور التّعايش بين الأفراد والمجتمعات والطّريق الأفضل والأسهل للوصول بأفراد المجتمع إلى برّ الأمان، مخفّفاً من حدّة الصّراعات الدّينيّة والسّياسيّة والطّائفيّة بين أطراف الحوار، لما له من أهمّيّةٍ كُبرى في تقريب وجهات النّظر بين المتحاورين بمختلف انتماءاتهم وتنوّع آرائهم ومعتقداتهم.

وبالعودة إلى محفوظ وفي حديثه عن الرّواية العربيّة واشتغالها على النّصّ الدّينيّ فإنّه يقول:

"والرّواية العربيّة المعاصرة اهتمّت بالاشتغال على النّصّ الدّينيّ بمختلف مصادره ومشاربه وذلك بتوظيف نصوصه ومضامينه المختلفة، وجعلها آليّة من آليّاتها الإفهاميّة والاتّصاليّة التي من شأنها الارتقاء إلى المتلقّي، كالنّصوص القرآنيّة والتّوراتيّة، والإنجيليّة، إضافة إلى توظيف الحديث الشّريف والتّراتيل الدّينيّة، والفكر الدّينيّ، ولاسيّما فكر المخلّص، والفكر الصوفيّ وغيرها من الأفكار الدّينيّة التي حظيت باهتمام الروائيّين المعاصرين، وبفضل ما يتمتّع به الدّين من أفكار مركزيّة مهمّة فإنّ "الأيديولوجيّة لا تنفصل عن فضاء العمل الدّينيّ؛ ذلك أنّ كلّ واحد مهما ينهل من الآخر في حقل كبير من التّفاعل وعلاقات التّأثير والتّأثّر، إذ إنّه وعند خطوط التّماس الأولى بين الدّين والإيديولوجيّة تزول العلامات الفارقة بينهما، فتطفو على السّطح عناوين إدماجيّة من قبيل (الأيديولوجيّة دينيّة) حيناً أو (تديّن أيديولوجيّ) وقد تتباين رؤى الفواعل الأيديولوجيّة؛ أيّ المتديّنون أثناء ممارسة زمنهم الدّينيّ".

ولقد حاول بعض الباحثين استخدام مصطلح النّسق الثّقافيّ Cultural System أو النّسق السّوسيوثقافيّ Sosioucltural System مرادفاً لمصطلح (الدّين) ويأتي على رأس هؤلاء (كليفورد غيرش) فهو يعالج الدّين نسقاً ثقافيّاً ويتناول الأيديولوجيّة بوصفها نسقاً ثقافيّاً.

وبناءً على ما ذهب إليه (كليفورد غيرتس) فإنّ كلّاً من الدّين والأيديولوجيا أنساقٌ ثقافيّة. "وقد شمل التّوظيف للنّصّ الدّينيّ مستويات عديدة ومختلفة كتوظيف البنية الفنيّة واستحضار الشّخصيّات الدّينيّة، وتصوير شخصيّة البطل في ضوئها وبناء أحداث الرّواية في ضوء أحداث القصّة الدّينيّة إضافة إلى التّنوع في إدخال النّصّ الدّينيّ في الرّواية". (محفوظ، مجلة أبحاث ميسان، العدد ٣٥).

يمكننا القول: "إنّ ما يريد محفوظ توضيحه هو أنّ معظم النّشاطات التي يقوم بها الأفراد تُبنى على مرتكزات الدّين، وأنّ المجتمعات الإنسانيّة تمرّ بمراحل تاريخيّة يكون فيها الدّين والإيديولوجيّة شيئاً واحداً، حيث يصبح النّسق الدّينيّ والإيديولوجيّ كلّاً متكاملاً، ويصبح الفكر الموجّه للفعل والسّلوك في مجتمعٍ ما ذا طابع ديني.

مواضع ظهور النّسق الدّينيّ في الرّواية:

ليس من الغريب أن تتّصف رواية (يرحلون ونبقى) بالطّابع الدّيني في جميع جوانبها وفصولها، لأنّ الكاتبة /راما/ قد نشأت وتربت في أسرة محافظة ومتعلّمة وملتزمة بالعلم والأدب والدّين، فهي ابنة لإمامٍ وخطيب جامع عثمان بن عفّان في "عربين" الشّيخ يوسُف الحاج علي وأمّها لا تقلّ مكانةً عن أبيها في العلم والأدب والثّقافة والتربيّة، وهي مدرّسةٌ لمادة اللغة العربيّة ومربيّة فاضلة، أضف إلى ذلك المكتبة الثّقافيّة التي أسّسها والدها وأفنى حياته في جمعها لتكون نتاجاً علمياً وإرثاً ثقافيّاً عظيماً ومقوّماً علمياً ورافداً من أهمّ الرّوافد الأدبيّة والعلميّة التي نهلت منه الكاتبة راما وأخواتها علمها وثقافتها الدّينيّة والكونيّة لتصل إلى ما وصلت إليه من العلم والأدب والتحصيل العلميّ، على الرّغم من القهر والظّلم والمعاناة التي أذاقتها إيّاها ظروف الحرب والحصار والموت والدّمار وفقدان حنان الأب بعد اعتقاله من قِبَلِ نظام الأسد واستشهاده تحت سياط التّعذيب في السّجن، إضافة إلى ذلك اشتراك والديّها بالاسمَيْن /يوسُف ومريم/ اللذَين ذكر في القرآن الكريم في سورتيّ /يوسُف/ و/مريم/.

كل تلك المقوّمات مجتمعةً مهّدت أمام /راما/ الطّريق لتمنح روايتها أسلوباً مميزاً متّسماً بالطّابع الدّينيّ، حيث اقتبست كلماتها وجملها وصورها من كتاب الله، لتنتج لنا روايةً آسرةً للقلوب ومشوّقةً للنّفوس، فقد اجتمعت فيها خصائص العمل الإبداعيّ وشروط العمل الفنيّ المتقن، حيث أسهمت لغتها وتراكيبها في خلق قوةٍ جاذبةٍ لا يستطيع القارئ الانفكاك من سلطانها لتكشف من خلالها عن أسرارٍ مخفيّة مفجعةٍ وصادمة، وأحزان وآلام عاشها أبناء سورية في ظل حكم الأسد وأعوانه الذين نال منهم الهوان وأعمل فيهم الأسد مخالبه القذرة والسّامّة فأصابهم في مقاتلهم.

يمكننا القول بأنّ النّسق الثّقافيّ الدّينيّ قد نال حصّته العظمى من رواية (يرحلون ونبقى)، حيث تموضع في جميع جوانبها ابتداءً من العنوان مروراً بفصولها وانتهاءً بالخاتمة، وسنعرض بإيجازٍ أهمّ المواضع التي ظهر فيها النّسق الدّينيّ جليّاً وواضحاً في الرّواية سواء كان ظهوره اقتباساً أم استشهاداً بآيات من كتاب الله.

نسق العنوان والغلاف:

نبدأ بعنوان الرّواية (يرحلون ونبقى) الذي يحمل في طيّاته معاني مختلفة الجوانب والرّموز، وقد سبق لنا الحديث عن معناه الثّوريّ الذي رمزت الكاتبة من خلاله إلى رحيل الظّلم واختارت اللون الأسود في كتابة /يرحلون/ إشارة إلى الظّلم الذي أسدل ثقله نظام الأسد على أبناء سورية

واللون الأحمر لكتابة /نبقى/ إشارة إلى أنّ البقاء يتطلّب تضحية ودماء وصبراً وتحدّياً، أمّا الجانب الدّينيّ الذي يحمله هذا العنوان والذي أرادت الكاتبة إظهاره فيتمثّل برحيل الشّهداء الذين مَضَوا في سبيل الحرّيّة والكرامة وإظهار الحقّ الذي سيبقى مدة بقاء أهله الذين يدافعون عنه وينتظرون دورهم للشّهادة في سبيل الله.

وهنا إشارة إلى الآية الكريمة التي يقول الله عزَّ وجلّ فيها: **{مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا}**. (سورة الأحزاب، آية: ٢٣)

أمّا قولها: (حتّى عنوان انتصاري هزيمة) فهو إشارة إلى أنّ انتصار الحقّ بداية لهزيمة الباطل وهو نظام الأسد؛ لأنّ البقاء لأصحاب الحقّ مهما حاولتِ الأنظمة والحكومات أن تنال منه.

وبالانتقال إلى /الإهداء/ نلاحظ إشارة واضحةً لنسق دينيّ مُقتبسٍ من سورة يوسُف حيث تقول الكاتبة: "لذلك القلب اليوسُفيّ الذي يزعمون أنّه توقّف عن النّبض في غياهب جبٍّ مظلمٍ". (الرّواية، الإهداء، ٥)

وهنا إشارة إلى الآية الكريمة التي ذكرها الله عزّ وجلّ في سورة يوسُف، فيقول على لسان أخوة يوسُف عليه السّلام إذا نادى منادٍ: **{ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا}** فردّ آخر: **{لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ.}** (سورة يوسُف، آية: ٩، ١٠)

وقد ظهر هذا النّسق أيضاً بشكل جليّ وواضح في عنوان الفصل الثّاني وفي سياقه، حيث ارتأى أحد عناصر جنود الأسد بقتل أبيها بينما أشار آخرُ بسجنه لتستعرض الكاتبة هذه الآيات من سورة يوسُف لتكون شاهداً على تآمر الأسد على أبيها الذي يشبه في قصّته قصّة نبيّ الله /يوسُف/ عليه السّلام عندما تآمر عليه إخوته وأجمعوا على إلقائه في الجبّ ليلتقطه بعض السّيّارة ويبعدونه عن أبيه، لكنّ الفارق في النّيّة حيث أراد إخوة يوسُف إبعاد أخيهم عن عينيّ أبيه فحسب ليخلوا لهم وجه أبيهم ويهتّم بهم بدافع الغيرة فقط، أمّا نظام الأسد فدافعه متمثّل بحبّ القتل وإرهاق الدّماء ونشر الظّلم والقهر والاستبداد ليُخضع أبناء سورية لحكمه وإبعادهم عن الحرّيّة والقضاء على ثورتهم حسب زعمه.

نسق النّصّ والفصول:

نلاحظ وبشكل واضح ظهور النّسق الدّينيّ في عنوان الفصل الأوّل من الرّواية والمعنون بـ (قد جعلها ربّي حقّاً) (الرّواية، ص: ١٧) إشارة منها إلى قوله تعالى على لسان نبيّنا يوسُف عليه السّلام في سورة يوسُف: **{قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ}** (سورة يوسُف، آية: ١٠٠)

وهنا تعبّر الكاتبة من خلال ذكرها للآية الكريمة عن فرحتها بتحقّق حلم أبيها مُذْ كانت صغيرة بأن تكون طبيبة وكان لها ذلك.

هذا الحلم أشبه برؤيا يوسُف عليه الصّلاة والسّلام والمتمثّلة بالنّبوءة والولاية، إذ يقول الله عزّ وجلّ: **{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ.}** (سورة يوسُف، آية: ٤)

وفي فصل الرّواية التّاسع الذي ابتدأته الكاتبة بعنوان /الذين اصطفينا/ المقتبس من الآية الكريمة في قوله تعالى: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ}**. (سورة فاطر، آية: ٣٢)

تسعى الكاتبة من خلال هذا العنوان لإظهار نسق ثقافيّ دينيّ متمثّل بأنّ أهل الشّام هم المعنيّون بمن اصطفاهم الله من عباده المخلَصين من أمّة محمّدr، لذلك لابدّ لهم من امتحانٍ إلهيّ لاختبار صبرهم ليكونوا في صفوف المصطفين من الله عزّ وجلّ، فلكلّ درجة عند الله اختبارها الخاصّ الذي يجب على العبد اجتيازه ليرقى إلى الدّرجات العُلا، وهذا الأمر يتطلّب صبراً وتقوى وإيماناً مطلقاً بالله وتسابقاً على فعل الخيرات لنيل درجة الفضل الكبير عند الله، هذا العنوان بمثابة جوابٌ لسؤال الكاتبة: لماذا نحنُ؟

وفي إشارة من الكاتبة لخذلان العرب للثّورة السّوريّة وصمتهم إزاء ما يحدث من ظلم وقهر وقتل وتشريد لأبنائها تسترجع في ذاكرتها قول الله تعالى: **{وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ}**.(سورة التّوبة، آية: ٤٦)

هنا خطاب إلهيٌّ من الله تعالى إلى نبيّه محمّدr يؤكّد له أنّ الذين تردّدوا في الخروج معه إلى الغزو دون عُذرٍ مُسبق ليس لهم قدمٌ ثابتة، فهم حائرون يقدّمون رجلاً ويؤخّرون أُخرى، فلا حاجة لله ورسوله بمثل هؤلاء وأنّ الله أراد لهم القعود قدراً منه في خروجهم مع النّبيّr خيراً للمسلمين لما أبغض عليهم الخروج وثبّطهم، وهذه الحالة تنطبق على حال العرب في الوطن العربيّ الذين لم يخرجوا إلى جانب أبناء الثّورة السّوريّة لأنّ الله أعلم بهم وهو علّام الغيوب، لذلك أراد لهم القعود خوفاً على المجاهدين في سبيل الله من الفتنة والخذلان، فلو كان فيهم الخير لقدّرَ الله لهم الخروج والجهاد في سبيله ونصرة الحقّ، أمّا في الفصل الحادي عشر من روايتها والذي لم تجدِ الكاتبة له عنواناً لكثرة أحداثه وتشابكها وغموض أسبابها ودوافعها فتتساءل مستغربةً عن الأسباب التي تدعو أخوة السّلاح للتّناحر والاقتتال في معارك الفتنة التي لا طائل منها مع رفقاء لهم في فصيل آخر والذين قاتلوا معهم صفّاً بصفٍّ ضدّ عدوٍّ حقيقيّ فتقول: "تبّاً إلى أين نمضي؟! إلى الهاوية ساءتِ الأوضاع أكثر فأكثر، أصبح الأخوان في المنزل الواحد يقتل أحدهما الثّاني إذ كان كلٌّ منهما منتسباً لفصيلٍ يعادي الآخر.

لماذا الاقتتال؟! لا أعلم، ما أعلمه هو أنّه عندما تسقط المبادئ تضيع الأهداف. قُسّمتِ الغوطة داخليّاً، ازداد الحصار حصاراً صنعناه بأيدينا غابتِ الحكمة عن الجميع، ولم يكن منهم

رجلٌ رشيد يُفهمهم معنى قوله تعالى: (الرّواية، ص ١٢٧)**{ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ}**. (سورة الأنفال، آية: ٤٦).

وهنا إشارة من الكاتبة إلى التّوجيه الإلهي للمجاهدين بالتّوحدّ والتّآلفِ للحفاظ على قوتهم لمواجهة أعداء الدّين والذي يُعدّ بمثابة تحذيرٍ من التّنازع والفتنة التي تؤدّي إلى الفشل وكشر شوكتهم.

"تركتُ يوسُف خلفي في الفرقة الرابعة تحت الأرض، لقد كان من القلائل الذي يمكنهم الحفاظ على الهدوء والابتسام وسط الجحيم الذي كنا نعيش فيه". (الرّواية، ص ١٧٩)

وتعاقبت الأيّام والليالي، ليلٌ يطويه نهارٌ، ونهارٌ يطويه ليلٌ، وصبر واشتياق وانتظار بعد وصول قميص أبيها كبشارةٍ ثانية لتبقى البشارة الثّالثة والتي تتمثّل ببشارة اللقاء القريب وهنا تقول:

"رحتُ أقلّب صور القميص وأبكي، أتحسّس شيئاً منك وأبكي، أحاول أن أسترجع رائحة عطرك اليوسُفيّ وأبكي. بكيتُ كثيراً كثيراً، غير أنّ بكائي هذه المرّة لم يكن كغيره في أيّة مرّة، كنت أبكي فرحاً، كيف لا؟! وقد أهداني القدر رسالةً جديدة تُنبئُ بقرب اللقاء.

كنتُ ما بين شهقةٍ وأخرى أهمس: (إنّه القميص الثّاني)، وما بين دمعةٍ وأخرى أردّد: (بقي قميصٌ واحد.. قميصٌ أخير لنتوازن معادلة يوسُف)، لطالما قمتُ بتحليلٍ عميقٍ لسورة يوسُف ولطالما قارنتُ يوسُفَنا بيوسُفها، فكنتُ أقيسُ مجريات أحداثنا على مجريات أحداثها، وأتنبّأ بقرب اللقاء مع تتابع البشارات". (الرّواية، ص ٣٥٠).

وفي تأكيد منها على تطابق الأحداث بين قصّة أبيها وقصّة نبيّنا يوسُف في سورة يوسُف تقول: "ورد حضور القميص في سورة يوسُف ثلاث مرّات. فأمّا أوّلها فكان **{وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ}**، ولقد جاءنا القميص ليس بالكذب.

وأمّا ثانيها فكان دليلاً على صدق يوسُف وبراءته ممّا ألقي عليه من تُهم **{وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ}**، (سورة يوسُف، آية: ٢٧) وها هو ذا قميص براءتك.

وأمّا ثالثها وأخيرها فهو قميص البشارة والإيذان باللقاء القريب **{ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا.}** (سورة يوسُف، آية: ٩٣).

إذاً فهي ثلاثةٌ، انقضى منها اثنان، فازداد شوقنا وأملنا للأخير. أرجو ألّا تطول هذه المرحلة كثيراً، فأنا لا أطيق صبراً حتّى ندخل عليك كما دخلوا على يوسُفَ، وأن نأوي إليك كما آوى إليه أبويه، وأن نردد جميعاً بفرحٍ: **{قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ.}** (سورة يوسُف، آية: ١٠٠) (الرّواية، ص: ٣٥٠، ٣٥١).

وتختم متفائلة فتقول: "سيجعلها ربيّ حقّاً يا يوسُف، سيجعلها حقّاً، مؤمنةً أنا بذلك. اقترب موعد اللقاء يا أبي، لم يعد يفصلني عنك سوى قميص واحد، قميص**{فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ}**. (سورة يوسُف، آية: ٩٦) (الرّواية، ص: ٣٥١).

نعم لقد ارتدَّ نبيُّ الله (يعقوب) عليه السّلام بصيراً وطمأن الله قلبه برؤية يوسُف عليه أفضل الصّلاة والتّسليم، ومكّن لهما في الأرض لأنّ إرادته شاءت بذلك ورحمته وسعت كلّ شيء.

أمّا الكاتبة فلم تحظ برؤية أبيها لترتدَّ بصيرة وليطمئنَّ قلبها بعد أن ابيضّت عيناها، وفُطِرَ قلبها من الحزن على فراقه فتنشد داعيةً راجيةً ربَّها:

"وابيضّتِ العينان أين قميصه..؟!

هل جاء من أحدٍ رماه فبشّرا؟!

ردُّوا عليّ قميص يوسُف إنّني

يعقوبه – عميتُ لفقده– عَلِّي أرى (الرّواية، ص: ٣٥٣)

وهنا تأكيد من الكاتبة أنّ القصص مهما تشابهت في كثير من جوانبها، لابدَّ من اختلافها في جانب أو أكثر، فما حصل مع نبيّنا يعقوب عليه السّلام وابنه يوسُف الصّديق أمرٌ إلهيٌّ فمن الطبيعيّ أن تتحقّق مجرياته كاملة لأنّها مرتبطة بإرادة الله عزّ وجلّ الذي يقول للشيء كن فيكون، وقد وعد الله نبيّه يعقوب عليه السّلام بعودة ابنه يوسُف إليه ووعده حقّ، وكان له ذلك، أمّا يوسُف (راما) فلم يكن في أيدٍ آمنةٍ، بل كان بين أيدي نظامٍ فاشيٍّ ظالم لا يعرف معنى الإنسانيّة ولا يخاف الله، ولا يفهم إلّا لغة القتل والظّلم والتّشبيح والتّعذيب، لأنّه يجد فيها لذّة مطلقة، فمن الطبيعيّ جدّاً أن يكون مصيره الموت تحت التّعذيب بسياط الأسد المجرم، وأن يكون قميصه ملطخاً بدمٍ ليس بكذب، لينال شرف الشّهادة ولترقى روحه إلى الجنّة بإذن الله، وهنا يظهر النّسق الدّينيّ واضحاً صريحاً بكلّ جوانبه، وكأنّ الكاتبة تريد أن تؤكّد الفارق في المكانة التي خصّ بها الله رُسله والمتمثّلة بالمعجزات الإلهيّة التّمكين في الأرض والدّرجات العُلا عند الله في الجنّة، والمكانة التي خصّ بها علماء الدّين المؤمنين بالله حقّ الإيمان بوصفهم ورثة الأنبياء والمرسلين، لتكون هدّيتهم في الدّنيا الشّهادة في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، والفردوس الأعلى في الجنّة جزاءً لهم بما كانوا يعملون.

وهنا يأتي الفصل الحادي والثّلاثون لتؤكّد الكاتبة من خلاله حقيقة ما حصل لأبيها الشّيخ / يوسُف الحاج علي/ من خلال العنوان الذي يشير إلى أنّ ذئاب النّظام المجرم قد التهمت بأنيابها القذرة لحماً يوسُفيّاً طاهراً، ولطّخت قميصه بدم الثّأر والانتقام، لينتقل ذلك القميص من السّجن ليجوب العالم بأسره كاشفاً حقائق كثيرة عن ممارسات النّظام المجرم بحقّ أبناء سورية لعقود من الزّمن والتي كانت تخفى على كثير من النّاس، وعلى كثير من وسائل الإعلام.

نعم لقد أكله الذّئب بعد سبع من السّنين العجاف التي قضاها في سجون النّظام المجرم وأقبية مخابراته النّازيّة ليموت حلم اللقاء به إلى الأبد.

تقول الكاتبة مظهرةً خيبة أملها بذلك اللقاء المنتظر: "كسرت قلبي رسالةٌ، رسالةٌ من أخٍ ليوسُف مفادها أنّ يوسُف أكله الذّئب! لقد فعلتها ذئاب البشريّة هذه المرّة، لقد التهمت بأنيابها القذرة لحماً يوسُفيّاً طاهراً.

جمّد أطرافي خبرٌ، خبرٌ وصلني في أواخر أيّام الشّتاء، ليتركني أقاسي ارتجافاً من الغرفة، وتركني وحيدةً أسمع صوت نياط قلبي وهي تتقطّع، تركني خلفه أهوي وحيدة في غيابات جبّي السّحيق صارخةً بما بقي لي من صوتٍ **{يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ{ }يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ{ }يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ}**، (سورة يوسُف، آية: ٨٤) امتلأ الجبُّ بدموعي التي غمرتني وأخذت تخنقني". (الرّواية، ص: ٣٦٠).

وتتابع الكاتبة تصوير خيبة أملها بلقاء أبيها بعد أن تأكدّ خبر استشهاده في السّجن بعد سبع من السّنين العجاف التي قضاها تحت التّعذيب فتقول:

"سبعٌ عجافٌ يا يوسُف، سبعٌ عجافٌ مزّقتُ فيها قلبي سبعة أجزاء، أهديتك جزءاً، وأمّي جزءاً، وأخواتي لكلّ منهنّ جزءاً، واحتفظتُ بجزئه الأخير لنفسي، سبعٌ عجافٌ يا يوسُف، لم يأتِ بعدها العام الذي كنت أنتظر الغيث فيه، فازددتُ عطشاً، ازددتُ جفافاً، ازددتُ يباباً، ازددتُ بُعداً، وازددتُ حبّاً". (الرّواية، ص: ٣٦٠، ٣٦١).

وهنا نلاحظ اقتباس الكاتبة واضحاً من القرآن الكريم من سورة يوسُف في قوله تعالى على لسان يُوسف عليه الصّلاة والسّلام: **{قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ Rثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَRثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ}**. (سورة يوسُف، آية: ٤٧، ٤٨، ٤٩).

وفي حديثها عن تلك السّنين التي قضتها بحثاً عن أبيها في سجون النّظام الفاسد والمجرم وفي أقبية مخابراته الفاشيّة تكمل قائلةً:

"سبعٌ عجافٌ جهدتُ خلالها على أن أتحسّس شيئاً منك، أن أدلوَ بدلوي في كلّ الآبار علّني أجدك فأصيح: (يا بشرى!). (الرّواية، ص: ٣٦١).

وهنا إشارة إلى الآية الكريمة من سورة يوسُف في قوله تعالى: **{وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ}**. (سورة يوسُف، آية: ١٩).

نعم لقد أدلى وارد السّيّارة بدلوه في بئرٍ واحدةٍ ولمرةٍ واحدةٍ فبشره الله بيوسُف، أمّا الكاتبة فقد أدلت بدلوها في كلّ الآبار لكنّها عادت خائبة خاوية الوفاض كمن يعود بخُفَيْ حُنَيْن، وهذا ليس بغريب، لأنّ الفرق شاسعٌ وكبير بين بئرٍ سخّره الله عزّ وجلّ لنبيّه ليخلّصه من ظُلم إخوته، وليمكّنه في الأرض ويُعزَّ مقامه ويعيده إلى أبيه يعقوب عليه السّلام وليجعله وليّاً على إخوته وأبويه إيذاناً من الله عزّ وجلّ لتحقيق رؤياه بسجودهم له، وبين آبار الظّلم والظّلمة التي استخدمها النّظام المجرم

لتغييب كلّ من يجرُؤ على النّطق بكلمة حرّيّة أو يتلفّظ بقول (لا) أو يرفض الخضوع لحكمه الفاشيّ وتُكمل قائلةً: "سبعٌ عجافٌ أملتُ فيها بقدوم بشيرٍ يلقي بقميصك على وجهي فأرتدُّ بصيرة"، (الرّواية، ص: ٣٦١) في إشارة منها لنسق دينيّ مقتبس من الآية الكريمة على لسان يوسُف عليه السّلام في قوله تعالى: **{ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا}**. (سورة يوسُف، آية: ٩٣).

نعم لقد جاء البشير بقميص يوسُفَ لكنّه ليس كقميص يوسُف الصّدّيق، فلم يُعدِ البصرَ إلى الكاتبة، بل زاد الأمر سوءاً، وجعل الحزن أبديّاً، فالدّم الذي لطّخ القميص دمٌ حقيقيٌّ طاهرٌ ضحّى به الشّيخ (يوسُف الحاج علي) إعلاءً لكلمة الله ومتابعة لنهج الآباء والأجداد في السّير على طريق الحقّ والحرّيّة والعدالة والحياة الحرّة الكريمة بعيداً عن الظّلم والاستبداد، ليكون بذلك قد سُطِّرَ اسمه مع من سبقوه على صفحات المجد وجعل من دَمه نبراساً ومشعلاً يضيء طريق النّضال إلى أن يتحقّق النّصر والعدل والحرّيّة والمساواة.

نعم لقد كان أمل (راما) بلقاء أبيها السّبب الوحيد الذي جعلها تتحمّل قساوة تلك السّنين التي كوَتها كيّاً، وأذاقتها البؤس والشّقاء ومرارة الفراق على مدى سبع سنوات حالكات كالحات لا بصيص فيها سوى الانتظار والأمل باللقاء المُنتظر فتقول معلنةً تسليم أمرها لقضاء الله وقدره:

"سبعٌ عجافٌ تمنيّتُ أنت تنتهي بدخولنا عليك لنأوي إليك، فتقرَّ برؤياك أعيننا التي ابيضّت من الحزن كعينَيْ يعقوب". (الرّواية، ص: ٣٦١).

وهنا تذكيرٌ بالآية الكريمة في قوله تعالى: **{وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ}**. (سورة يوسُف، آية: ٨٤).

"سبعٌ عِجافٌ يا يوسُف، سبعٌ عِجافٌ كوتني كيّاً، أذاقتني فيها من البؤس ما لم أكن لأتحمّلهُ لولا الأمل بلقياك. كنت أنتظر منك القميص الثّالث يا يوسُف، أنتظر منك قميصَ (فارتدَّ بصيراً)". (الرّواية، ص: ٣٦١).

وتتابع الكاتبة تصوير خيبة أملها بلقاءِ أبيها برضًى وتسليم لقضاء الله وقدره لتتساءل مستغربة ومتعجّبة ومستهجنةً من كلّ ما حصل معها على الرّغم من كلّ جوانب التّشابه بين القميصين في المقدّمة لتنتهي بلغزٍ يُثير الحزن والألم والفراق الأبديّ فتقول:

"هل كنتُ واهمةً طيلة السّبع الشّداد تلك، هل كانت كلّ محاولاتي بربط القصّتيْن هباءً؟! ولكن لا، كيف ذلك؟! والاسم نفسه والسّجن نفسه والقميص نفسه، كيف يمكن لكلّ هذا التّشابه في المقدّمات أن يؤدّي لهذا الاختلاف السّحيق في النّهايات، كيف يمكنه أن يقلب الحياة إلى موت؟ لغزٌ لا أجد لحلّه من سبيلٍ سوى أنّنا هنا قد حُتِّمت علينا النّهاياتُ المأساويّة، حُتِّم علينا الموت الذي نصَّب نفسه خاتماً لرواياتنا". (الرّواية، ص: ٣٦١)

من خلال الدّراسات المختلفة لعلماء النّفس أجمعت تلك الدّراسات وبحسب آراء علمائها على أنّ نفس الإنسان تلجأ إلى أحلام اليقظة في فشلها في تحقيق أهدافها على أرض الواقع لتكون تلك الأحلام ملاذاً لتحقيق تلك الأهداف في عالم الخيال، وهذا ما حصل بالضّبط مع الكاتبة حيث لجأت إلى إعمال خيالها فأعادت صورة أبيها في ذاكرتها وتخيّلت نفسها تحدّثه لتنقل لنا ذلك الحوار الذي دار بينهما خلال رحلة بحثها عنه في سجون النّظام المجرم وأقبية مخابراته القذرة لتخاطب طيفه قائلة:

"أسندتُ رأسي إلى قُضبان الزّنزانة ورحتُ أحدّقُ في الخواء، تراءى لي بعيداً طيفٌ حنون لفَّه الطُّهر من كلّ مكان. قلتُ: أَإِنَك لأنت يوسُف؟!، قال: (أنا يوسُف) قد منَّ الله عليَّ". (الرّواية، ص: ٣٦١).

وهنا إشارة واضحة لنسق دينيّ متمثّل بالاقتباس من الآية الكريمة في قوله تعالى: **{قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ}**. (سورة يوسُف، آية: ٩٠).

وتكمل حديثها مع طيف أبيها لتروي ظمأ سبع سنين عجافٍ "هممت أن أضمّه ضمّة أروي بها ظمأ (سبعٍ عجافٍ)، لكنّ المسافة بيننا كانت تزيد وتزيد حتّى خِلْتُ طيفه ذهب مع الرّيح.

صدحتُ بأعلى صوتي: لا، لا ترحل.. ابقَ معي! ارتسمت على محيّاه معالم مقاتلٍ استنفذ كلّ خُطط معركته، فآل إلى الانهزام.

أردفتُ: إذاً خمس دقائقَ، (خمس دقائقَ وحسب) قل لي أيَّ شيء. ردّ بوقاره الأخّاذ: يُحكى أنّ ملكاً صار عبداً، وأنّ عبداً صار ملكاً، وتلك الأيّام نداولها بين النّاس". (الرّواية، ص: ٣٦٤)

وهنا إشارة واضحة من الكاتبة لنسق دينيّ في الآية ١٤٠ من سورة آل عِمران، والتي يوجّه الله تعالى من خلالها خطاباً لمحمّدr مبشّراً إيّاه بأنّ العاقبة للمتّقين، لكنَّ ذلك يتطلّب صبراً وجهاداً وثباتاً في وجه أعداء الله ليتّخذ الله من أمّة محمّد شهداء يُقتلون في سبيل الله ويبذلون أرواحهم في مرضاته عزّ وجلّ، لأجل ذلك يداول الله عليه الأعداء تارة أخرى ليختبر صبرهم، يقول عزّ وجلّ: **{إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ}**. (سورة آل عمران، آية: ١٤٠).

لعلّ الكاتبة تحاول طمأنة نفسها بهذه الآيات الكريمة، وطمأنة قلب أبيها تأكيداً منها على أنّ الله قدّر لأبيها ما قدّره ليصطفيه في زُمر الشّهداء لمواقفه الواضحة ضدّ النّظام المجرم الفاسد ونصرةً لدين الله وإعلاءً لكلمته وطمعاً برضاه والفوز بالدّرجات العليا من الجنّة.

وتختم ذلك الحوار مع طيف أبيها لتنقل وصيّته قائلةً: "ثمَّ ماذا؟!، ثمّ إنّني أوصيكِ يا ابنتي بيراعك، انتقمي به من الحرب، اقتصّي بمداده لي، خُطّي به أيّاماً من حياتي، وارسمي به طريق

هروبي إلى الحرّيّة، واكتبي، اكتبي عن وطنٍ من لحمٍ ودم، واعلمي يا ابنتي أنّ الظّلم سيرحل وأنّ الحقّ سيبقى. إذاً سيرحلون وسنبقى. هي ذي: (يرحلون ونبقى). (الرّواية، ص: ٣٦٤)

ويبقى الأمل بالانتصار قائماً وتبقى الثّورة حتميّة، هذا ما أشارت إليه الكاتبة في عنوان فصلها الثّاني والثّلاثين، لأسباب عدّة أهمّها أنّ الله قد وعد عباده المجاهدين في سبيله بالنّصر المبين، وجعل ذلك الوعد حقّاً في إشارة واضحة من الكاتبة لنسق دينيّ تظهره في الآية الكريمة من سورة يوسُف تأكيداً على تحقّق رؤيا يوسُف عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: **{قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا}** (سورة يوسُف، آية: ١٠٠) هذه الآية الكريمة التي ختم بها والدها الشّيخ (يوسُف الحاج علي) في آخرة خطبة جمعة له والتي سبقت زمن اعتقاله فتقول: "لازلت أذكر كلمات آخر خطبة جمعة له، والتي سبقت زمن اعتقاله بأقلّ من أربعٍ وعشرين ساعةً.

مازال صوت أبي الصّادحُ بها يتردّد على مسامعي ليزيدني تشوّقاً وتحرُّقاً، كانت خطبته يومها بعنوان: (بعد كلّ محنةٍ منحةٌ، ولن يغلب عُسرٌ يُسرَيْن).

تحدّث فيها آنذاك عن قصّةِ سيّدنا يوسُف عليه السّلام، عرض فيها ما وجده سيّدنا يوسُف من أذًى من أقرب النّاس إليه، وكم عانى وكم ظُلِمَ حتّى أذِن الله له بالفرج وعوّضه عن كلّ ما لاقاه من شرٍّ خيراً، كانت حروفُه تلامس روحي، ونغمة صوته تداعبُ شغاف قلبي، أبكاني في كلامه غير مرّةٍ، ليختتم خطبته بقوله تعالى: (قد جعلها ربّي حقّاً)". (الرّواية، ص: ٣٦٨، ٣٦٩)

والسّبب الثّاني هو تأكيد الكاتبة أنّ ما حصل لأبيها من ظلم وتعذيب وقهرٍ على أيدي النّظام الخبيث وأجهزته الأمنيّة لا يقلّ شأناً عمّا حصل ليوسُف عليه الصّلاة والسّلام من أذًى وظلمٍ ومعاناةٍ، والرّابط المشترك بينهما واحدٌ وهو الجهاد في سبيل الله والدّعوة لعبادته وطاعته وامتثال أوامره، فنال كلٌّ منهما مقاماً كريماً عند ربّه، حيث مكّن الله لنبيّنا يوسُف عليه الصّلاة والسّلام في الأرض وجعله أميناً على خزائن الأرض وردّه إلى أبيه لتقرَّ عينه وتتحقّق رؤيا يوسُف في الولاية على أخوته وأبويه، بالمقابل ارتقت روح الشّيخ (يوسُف الحاج علي) إلى بارئها ليلتحق في زُمر الشّهداء الذين قضَوا نحبهم وما بدّلوا تبديلاً ممتثلين لقول الله تعالى: **{مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا}**. (سورة الأحزاب، آية: ٢٣).

الخاتمة:

وفي ختام مقالنا في البحث عن النّسق الدينيّ في رواية (يرحلون ونبقى) للكاتبة (راما يوسُف الحاج عليّ)، وبعد الدّراسة المعمّقة وعمليّة البحث المطوّل والتّحليل التي تناولت دراسة هذا النّسق وتموضعه في كثير من جوانب الرّواية على اختلاف دلالاته نصل إلى نتائج مهمّة، منها:

- يشكّل النّسق الدّينيّ مجموعةً من المعتقدات تكوّن فيما بينها نظاماً متّصلاً وتتعلّق بعالم ما بعد الطّبيعة في غالب الأحيان، والهدف من ذلك التّفريق بين المقدّس بجانبيه الرّوحيّ والوجدانيّ وبين الدّنيويّ بالعادات والطّقوس المتّبعة في مجتمع ما.
- كما يُعدُّ النّسق الدّينيّ من أهمّ المرتكزات التي تدور حولها الثّوابت الفكريّة والاجتماعيّة حيث تمثّل التّوجهات الدّينيّة المحور الأساسيّ لأغلب سلوكيّات أفراد المجتمع الأمر الذي يجعل معظم نشاطات الأفراد تقوم على مرتكزات الدّين.
- سيطرة النّسق الدّينيّ وتموضعه بكلّ جوانبه وعلى اختلاف أنواعه على فصول الرّواية جميعها بما فيها المقدّمات والخاتمة، حيث اختارتِ الكاتبة عناوين مقتبسة من القرآن لبعض فصول روايتها وضمّنت باقي الفصول النّسق الدّينيّ ظاهراً ومضمراً.
- كان لسورة (يوسُف) الحظّ الأكبر في الظّهور في رسم أحداث الرّواية لما تحمله أحداثها من تشابه بين قصّة (يوسُف) عليه الصّلاة والسّلام وقصّة أبيها (يوسُف الحاج عليّ) على الرّغم من الاختلاف في نهاية كلٍّ منهما.
- اجتمعت لهذه الرّواية خصائص العمل الإبداعيّ وشروط العمل الفنّيّ المتقن، حيث أسهمت لغتها المثيرة وألفاظها الفصيحة وأساليبها المتنوّعة في معانيها البلاغيّة المتميّزة في خلق قوّةٍ جاذبة لا يستطيع القارئ الانفكاك من سلطانها، ويعود ذلك إلى ثقافة الكاتبة الدّينيّة والأدبيّة والاجتماعيّة والعمليّة.

كل تلك المقوّمات مجتمعة مهدّت الطّريق أمام الكاتبة لتمنح روايتها أسلوباً مميّزاً متّسماً بالطّابع الدّينيّ في جميع جوانبها، حيث اقتبست كلماتها وصورها من كتاب الله لتنتج لنا روايةً آسرةً للقلوب ومشوّقة للنّفوس.

يمكننا القول إنّ النّسق الدّينيّ قد نال حصّته العظمى من رواية (يرحلون ونبقى)، حيث تموضع في جميع جوانبها ابتداءً من العنوان مروراً بفصولها وانتهاءً بالخاتمة.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. ابن منظور الإفريقيّ المصريّ- لسان العرب- دار صادر- بيروت- لبنان- ط١- ١٩٩٠م- مادة نسق.

٣. إبراهيم مصطفى وآخرون- المعجم الوسيط- مجمّع المكتبة الإسلاميّة- إسطنبول- تركيا- مادة نسق.

٤. ابن فارس- معجم مقاييس اللغة- ترجمة: ابن سلام هارون- دار الفكر- بيروت- لبنان- ١٨٧٩م- ١٣٩٩هـ.

٥. أحمد زكي بدويّ- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعيّة- مكتبة لبنان- ساحة رياض الصّلح- بيروت- د ط- ١٩٩٢م.

٦. إسماعيل خلباص حمّادي- إحسان ناصر- النّقد الثّقافيّ مفهومه- منهجه- إجراءاته- مجلّة كليّة التّربية- جامعة العراق- عدد ١٤- ٢٠١٣م.

٧. حسين مناصرة- النّسويّة في الثّقافة والإبداع- عالم الكتب الحديث- جامعة الملك سعود- كليّة الآداب- قسم اللغة العربيّة- إربد- الأردن- ط١- ٢٠٠٨م.

٨. راما يوسُف الحاج عليّ- رواية يرحلون ونبقى -تدقيق: مريم شريف- مكتبة الأسرة العربيّة- إسطنبول- ط١- ٢٠٢١م.

٩. سعيد- جلال الدّين- معجم المصطلحات والشّواهد الفلسفيّة- دار الجنوب للنّشر- تونس- ٢٠٠٧م.

١٠. سعيد علّوش- معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة- دار الكتاب اللبنانيّ- بيروت- ١٩٨٥م- ط١.

١١. سمير خليل- النّقد الثّقافيّ من النّصّ الأدبيّ إلى الخطاب- دار الجواهريّ- بغداد- ط١- ٢٠١٢م.

١٢. ضياء كعبيّ- السّرد العربيّ القديم للأنساق الثّقافيّة وإشكاليّات التّأويل- المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر- بيروت- ط١- ٢٠٠٥م.

١٣. عبد الفتّاح كيليطو- المقامات (السّرد والأنساق الثّقافيّة)- ترجمة: عبد الكبير الشّرقاويّ- دار توبقال للنّشر- الدّار البيضاء- المغرب- ط٢- ٢٠٠١م.

١٤. عبد الله الغذاميّ- الثّقافة التّلفزيونيّة سقوط النّخبة وبروز الشّعبيّ- المركز العربيّ- الدّار البيضاء- المغرب- ط٢- ٢٠٠٥م.

١٥. عبد الله الغذاميّ- النّقد الثّقافيّ- قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة- المركز العربيّ الثّقافيّ- المملكة المغربيّة- الدّار البيضاء- ط٣- ٢٠٠٥م.

١٦. عبد الله الغذاميّ- عبد النّبيّ اصطيف- نقد ثقافيّ أم نقدٌ أدبيّ- دار الفكر- دمشق- سورية- ط١- ٢٠٠٤م.

١٧. عزّ الدّين مناصرة- علم التّناص والتّلاصّ- دار مجد لاوي- عمان- ط٣- ٢٠٠٦م.

١٨. محمد عبد المعبود مرسي- علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز بين نظريّتي /الفعل والنّسق الاجتماعيّ/- دراسة تحليليّة نقديّة/ كلية القصيم- بريدة- السّعوديّة- ط١- ٢٠٠١م.

١٩. نجيب محفوظ- النّسق الدّينيّ في مجموعة /دنيا الله/- مجلّة أبحاث ميسان- المجلّد ١٨- العدد ٣٥- حُزيران ٢٠٢٢م.

- **https://www.iasj.net/iasj/pdf/1578a7a2326/**

٢٠. يُمنى العيد- في معرفة النّصّ- دار الآفاق الجديدة- لبنان- ط١- ١٩٩٨.

٢١. أمينة حماني -اشتغال النّسق الدّينيّ في رواية/دروز بلغراد/لربيع جابر -مجلّة الخطاب-المجلّد/١٩/-العدد:١-كانون الثّاني/ ٢٠٢٤/.